أغنية حُبّ مِن حَجَر

مري سيتون

منذ سنوات رأيت بضع صور لتماثيل من معبد الشمس في كوناراك . وقد هزتني انسانية هذة الصور هزّاً عميقاً ، فاحببت الذهاب الى كوناراك اكثر من ايّ معبد آخر في الهند . لكن هذه الصور القليلة لم تستطع ان تدلل بوضوح علي ان كوناراك هي «نشيد انشاد» من الحجر، يصف كل وضع ممكن من اوضاع تواصل الرجل والمرأة ، ويبين مدى الشعور الذي يمكن ان يتحقق بالاتصال الجسدي .

ولم يحصل لديّ انطباع دقيق نسبيا عن معبد الشمس الا عندما رأيت مجموعة كبيرة من الصور غير المنشورة ، ولعلها اجمل ما رأيت في حياتي . ومع ذلك فقد مرت سنوات عديدة قبل ان اقوم بزيارة كوناراك وان اشهد ان الباغودا السوداء اروع بكثير مما كانت قد اوحت به الصور .

كان هناك سبب واحد يدفعني للذهاب الى كوناراك وتكوين انطباعي الخاص . هذا السبب هو اشمئزازي المتأصل من التبذل والاباحية . فقد كان واضحا بالنسبة لي ان كثيراً من الناس يعتبرون الصور التي شاهدتها في كوناراك فنا اباحيا متبذلا ، لكن هذه الصور الجنسية بدت لي ابعد ما يكون عما افهمه من التبذل . لان الفجور والاثارة عن طريق الايحاء هما برأيي جزءان مهان في التبذل، والتبذل يبعث فيّ عدم الارتياح ، ليس

لانه يصدمني بل لما يكشف من تزمت وطيد في دخيلة الاشخاص الذين يميلون اليه ؛ وانا اعني بالطبع المتزمتين في شؤون الجنس، لان امثال هـؤلاء هم الذين اضطهدوا الانسانية متقنعين بمختلف الاقنعة ولطالما فتكوا بالابرياء .

انا لا اعتقد ان باستطاعة الشخص الذي تعتريه نشوة فاجرة لدى رؤيـة فتيات الكورس نصف العاريات بنهودهن المزينة ، ان يتجاوب مع الجمال ومع روح الصدق الذي اوحى بالمنحوتات على جدران كوناراك . لم ازر معبد خاجوراهو ابـدا ، لكن الصور التي رأيتها له تجعلني اشعر ان فيه كثيراً من فن الاغراء وانها تتراوح بـين التولّه الحيوي والانحطاط . وانما هو الانحطاط الذي يولّد التبذل في العادة .

ان الاغراء الواعي في الحياة يمكن ان يكون تمهيداً لتحقيق وله عظيم في الحب ، لكن الوله العظيم نفسه يقضي على دافـع الاغراء المصطنع . ان كثيرا من النساء في خاجوراهو يحبين الحب نفسه ، لكن النساء في كوناراك يحبين الرجال ، او الآلهة ، وقد نبذن التصنع .

ما زلت اذكر بوضوح المواقف الشهوانية التي وقفها الكثيرون اثر ظهور رواية د.ه . لورنس « عشيق الليدي تشاترلي » للمرة الاولى . فقـد حاول الناس الحصول على نسخ منها ، ورغم منعها فقد اعطتني سيدة متزوجة نسختها الخاصة لأقرأها ، على اعتبارهـا كتاباً « فاسداً » . لا ادري ما اذا كانت حسبتني بكرا فسأجتني لذا فائدة من قراءتي للكتاب ، لكنني اذكر ان تصرفها اثر فيّ وحملني على الاعتقاد بان تلك المرأة تشكو حرمانا جنسياً . وكنت آنذاك في الثامنة عشرة من عمري او التاسعة عشرة على الاكثر .

وقد اعجبني كتاب « عشيق الليدي تشاترلي » وادركت في الحال انه اروع روايـة قرأتها في حياتي . اعجبني لانه خالٍ من كل اثارة عن طريق التلميح والايحاء . ولم استطع ان افهم كيف يمكن لايّ انسان ان يعتبره كتابـاً فاسداً ، الا ان كان من المتزمتين . وعندما اعدت قراءته بعد سنوات وجدته روايـة اعظم بكثير مما كان قد خيّل اليّ ، ورأيت فيه الرواية الوحيدة التي صورت الجاذبية الجنسية ونتائـج الاتصال الجنسي بطريقة اعرف انها تنطبق اصدق الانطباق على التجربة الحقيقية لعدد من الناس . لقد ادرك لورنس حقيقة حيوية عن الرجال والنساء الذين يلائم بعضهم الآخر الى حد كبير من الناحية الجنسية ، هي انه مهما كان سلوكهم في الماضي فوضويا ومتفلتا ، فـان النشوة

العظيمة في الاتصال الجنسي تولّد حالة نفسية تقوم على التعلق بالشخص الواحد ، ويمكن في الواقع ان تبعث شعوراً روحانيا . ما من كاتب حديث آخر عبّر عن ذلك مثل هذه البصيرة الواقعية . وقد عبّرت عنه ايضاً بعض الاشكال على جدران كونارك السامقة .

قررت قبل سنة ان اقرأ « لوليتا » ، وهي تباع في كل مكان في الهند ، مع ان « عشيق الليدي تشاترلي » ممنوعة فيها ، او على الاقل في بومبي . قرأتها من اولها الى آخرها ، لكن قراءتها استغرقت اسابيع من وقتي . ربما كانت قيّمة من وجهة ادبية ، لكنني وجدتها مقيتة جدا لانها مليئة بفقرات تتعمد الاثارة تعمدا وانما تتوقف عندما تبلغ مرحلة وصف الاتصال الجنسي . ان الانحراف في الرواية لا علاقة له بكون لوليتا في الثانية عشرة ، او كون همبرت في سن ابيها ؛ بل يكمن في اشمئزاز البطلين من نفسيهما وكرههما الدوافعهما الجنسية . ان لوليتا مثال النساء الباردات ، والجنس في الرواية مجرد منبه للطرفين واقل الاختبارات البشرية بعثاً للبهجة . هذه الرواية هي بالنسبة لي اكثر الكتب التي قرأتها اسوادادا مريضا .

وعلى الرغم من انني انفر من التبذل لانني لم انشأ على اعتبار الجنس خطيئة ، فانني لم انج من رؤية بعض نماذج التصوير الخلاعي في بعض الاحيان . والشيء الذي يستحق اهتمامي في فن الحب والجنس في الغرب ـ سواء اكان متبذلا ام لم يكن ـ هو خلوه من الفرح ، او المتعة الحسية الحقيقية ، او حتى من الوله العميق . هذا الجانب ليس في الحقيقة صحيحا بالنسبة للحياة ، اذ هناك في الواقع تجارب جنسية ناجحة سارة بقدر ما هناك تجارب خائبة وبائسة . ولو لم يكن الامر كذلك لقام ميل جارف نحو الحياة الرتيبة والعزوبة في الغالب انما تفرض لاعتبارات تقليدية او لاعتبارات دينية . لقد عشت حياتي كلها لم التق بغير امرأة واحدة لم يكن في قرارة نفسها حقا اي اكتراث بالجنس ، ومع ذلك لم يبد عليها ما يدل على انها شاذة جنسياً . ان لدى الناس ميولا جنسية طبيعية ورغبة في ان يحبوا ، وفي ان يكونوا محبوبين ، مهما بلغ كبت هذه الميول والرغبات . ويختلف الناس من حضارة لحضارة في درجة اندفاعهم في الحب . وعلى الرغم من تجوالي في كثير من بلدان العالم فقد تكوّن لدي انطباع بان اكثر الناس اندفاعا في الحب هم الذين يعيشون في المناطق التي لا يفترض ذلك في سكانها ـ اي في شرقي اوربا وشمالي امريكا . فحيثما وجد التزمت ، وجد بالمقابل تركيز على الجنس . وبين الاقوام التي

تأثرت كثيرا بوجهات النظر المتزمتة ، نلقي اندفاعاً عظيما لدى الرجال نحو الاغتصاب ، وميلاً للاغراء لدى النساء .

لعل غالبية الناس في العالم لا يختبرون ذروة الرضى في حياتهم الجنسية ، لكن الجنس في الوقت نفسه ليس بالنسبة لهذه الغالبية عربدة اغواءات واغتصابات ومشاركات في لهو بذيء ، كما تصوره رسوم الحب والجنس في الفن الغربي كله تقريباً ، حتى الاغريقي منه والروماني . ووضع الفن المسيحي مايدعى بالحب الطاهر مقابل ما يدعى بالحب الفاجر ، وارتفعت كمية الرسوم المعبّرة عن السادية الجنسية في مدى خمسة وعشرين قرناً بنسبة عجيبة .

لا اعرف لماذا ظهر العنف الجنسي في الغرب قبل انتشار المسيحية التي تشددت جدا مع اتباعها ، اذ اعتبرت الجنس « حيوانيا » ومن طبائع الانسان الدنيـــا . لكنه ظهر ، وكان من نتائجه ما في السحر وفي « القدّاس الاسود » من شذوذ وانحراف ، وما في الفن من اتجاه للتبذل ، تميز بسيطرة موضوع الاغتصاب من جهة واعتبار الجنس موضوعاً لدعابات ونكت قذرة من جهة ثانية .

وان الفوارق بين فن الحب والجنس في الغرب بما في ذلك الاغريق والرومان قبل المسيح وبينه في كوناراك ، لهي فوارق مدهشة حقا .

فالاساطير الاغريقية والرومانية التي تروي قصص الاتصال الجنسي بين الآلهة والبشر شائعة جداً . ومع ذلك فان عناصر الاغواء والاغتصاب كثيرة فيها . ولو قورنت هذه الاساطير باساطير كريشنا ليلا او رام ليلا لوجدنا فروقاً مذهلة . ويكمن الفارق الابرز في ظاهرة القهر عنوة في الجنس ، الذي يتجلى في العهد القديم من الكتاب المقدس تجليه في الميثولوجيا الكلاسيكية . اذ قلما ترد فيها مسألة التبادل والمشاركة بين الرجل والمرأة ، في حين تلعب عناصر التولّه والرضى المتبادلين دورا رئيسياً في الاساطير الهندوسية . وتبدو في اشد تجليها في اسطورة كريشنا ليلا ، كما ان شخصية رافانا مثيرة لتفكير كل من يعرف ما يقابلها من نماذج في الغرب . ويمكن التأكيد انه لو كانت سيتا شخصا في اسطورة غربية لتمّ اخذها اغتصابا !

واغرب ما في معظم الفن الجنسي الغربي هو الغلوّ في المثالية من جهة (او ما يمكن ان يسمى بالحب المقدس) ، وانعدام المشاركة والمبادلة في ما يعتبر فنا متبذلا . فنادرا ما يحمل الحب فيه متعة لاحد .

وعلى العكس ، فان الاستمتاع المشترك المتبادل هو الذي يترك اعظم الاثر في المتفرج على المنحوتات في كوناراك .

لئن سلمنا بان كوناراك عالم مصغر فان بعض التفاصيل الفردية فيها تبرز بقوة عظيمة. ففي مقدمة معبد الشمس تقوم تماثيل لسوريا ، اله الشمس ، وهو على جياد مختلفة تمثله وهو يعبر السماء من الفجر حتى الغروب . (ومن الطريف ان نـــذكر هنا ان هنود بيبلو الحمر هم ايضا صوروا الشمس كفارس يمتطي السماء ، ولديّ لوحة رائعة صورها شاب من هؤلاء الهنود في السابعة عشرة من عمره تمثل الشمس ممتطية جوادا ابيض يسير فـوق قوس قزح) . ولم ار قط مـــا يضاهي صور اله الشمس في كوناراك بسموها الروحي وجمال شكلها .

ومما يمنحني الشعور بالرضى ان الخلفية لهذه التماثيل ذات الجمال الخارق تضم تماثيل لرجال ونساء لا يقلون عن هذه روعة ويتعانقون عناق حب . وان قدرة الانسان ، هذا المخلوق البشري، على ان يتطور ويبدع صور اله الشمس سوريا هذه،لهي كافية لان تبرهن (ان كان للبرهان من ضرورة) على ان محاولة حصر فكرة الجنس بطبائع الانسان الدنيا تكشف عن فهم منقوص . اذ يستحيل على الانسان ، لو انه مولود من « الخطيئة» او من طبيعة الانسان « الحيوانيـــة » فقط ، ان يكون قادراً هـــذه القدرة على تخيل صور الالوهة وابداعها .

واكثر ما يجتذبني في كوناراك هو تصوير المنحوتات فيها للحقيقة العميقة ، حقيقة انه ليس بين النشاطات البشرية نشاط اكثر حميمية من الاتصال الجنسي . ولانه الاكثر حميمية كان الرمز الانسب لتصوير فكرة علاقة الانسان بالاله او القوة الخالقة في الحياة .

عندما انظر الى كوناراك اعرف، وارفض التظاهر باني لا اعرف،ان ما هو منحوت على الجدران يعكس في اصدق صورة مدى التجربة الجسدية والنفسية التي يقوى الرجال والنساء على تحقيقها عن طريق الجماع . هذا ما اراه انا ، ولا حاجـــة (بالنسبة لي انا على الاقل) ان ابحث عن تبرير لدواعي عرض هذه الصور على جدران معبد . اذ لا ارى سبباً يمنع تزيين معبد مكرس للشمس ـ واهبة الحياة ـ بنشيد للحياة ، او « بنشيد انشاد »

من الحجر .

واذا كان العشاق المنحوتون في اعلى الجـــدران يبدون كأنهم يتطاولون الى العلاء ، وكانوا رمزاً لنشدان الروح الانسانية عبادة الالوهة (كما توحي بذلك تعابير وجوههم)، فاني على استعداد لان اعتبر التجربة الجنسية اكثر من اتصال جنسي بين الانسان والاله . لم يعرف التاريخ عهدا او بلدا لم يعمل فيه بعض الناس على ارواء شهوتهم عن طريـــق مجامعة الحيوان : وقد عرف هـــذه الحقيقة عدد كبير من الناس على مرّ العصور قبل ان ينفي صحتها تقرير كينزي. ولعل هذا ادنى تعبير بشري عن الناحية الجنسية عند الانسان. ولانه هكذا ، قامت اللوحة الصغيرة التي تصور هذا الفعل في كوناراك في موضع غير بارز ووضعت في اسفل الجدران ، ولعل كثيرين من المتفرجين لم يلاحظوا وجودها ابـــداً . لكنها موجودة، وكان يمكن الاعتراض لو ان هذه الصورة أبرزت بشكل ما، فان ابرازها والحالة تلك ، كان ليتضمن موقفاً متبذلا .

هناك ، ولا شك ، تنوع في مشاعر الكثيرين ازاء كوناراك. فبعضهم يذهب ليرى فيها التبذل ، ويذهب آخرون لاهتمامهم بالفن ، وكثيرون يذهبون بدوافـــع متنوعة . لكن هناك ايضاً من يذهبون لرؤيتها بدون مشاعر معقدة مطلقا ، فهم ، اذ كانوا اناساً بسطاء، لم يفكروا يوماً بكوناراك كشيء فذّ . رأيت امثال هؤلاء هناك ، فقد قصدوها ليروا ما كان بالنسبة لهم معبدا محليا ، او على بعد غير كبير منهم ، مبنيا على هيئة عربـــة المعبد الخشبية التي رأوها مراراً في بوري او في سواها من الاماكن .

اشكّ في ان يكون هؤلاء مهتمين بتاريخ كوناراك ، او بالتفاسير الممتعة والتكهنات التي تدور حولها . ولا يهمهم ان يكون هذا المبنى هو الذرة في تراث بناء المعابد .ولعلهم لم يعرفوا انه بني في القرن الثالث عشر كالشوط الاخير في تطور طويل. وربما عرفـــوا بالتواتر ان بانيه هو ناراسيمها ديفا (١٢٣٨ ــ ١٢٦٤) ، وانـــه كان الحاكم الذي امر ببناء معبد الشمس بعد ان هزم غزاة بلده . لكن فيما خلا ذلك فكوناراك بالنسبة اليهـــم هي كوناراك ليس اكثر ، اي هي مكان كان يوماً ما مرفأ مزدهراً على خليج البنغال .

وعلى الرغم مما فعله الزمن بالمعبد هذا ، وما ناله من عنف على ايدي المتعصبين محطمي التماثيل والصور ، فقد بقي من المعبد الرئيسي ومن قاعة الرقص الرائعة ما يكفي لاعطائنا صورة عما كان عليه المعبد في الاصل. فقاعة الرقص قاعة هائلة من الاعمدة المزينة بنقوش

مجموعة اخـــاذة من الراقصات والعازفات ـ نساء سماويات ـ تبدو جميعهن في منتهى السعادة ، بحيث ان سعادتهن الغامرة تكاد تنسينا ان كل واحدة من هذه الرسوم صنيع فني فذّ .

وتسجل آثار جاغاموهان الضخمة ، على الرغم من تآكلها ، تطور الحب البشري من مظهره البهيمي الى اسمى مراتبه . الا ان برج ماندابا الذي كان في يوم من الايام اعلى من جاغاموهان هو اليوم انقاض مفجعة رغم احتوائه على ثلاث صور تمثل اله الشمس وما تزال قائمة . وكثير من العجلات الاربع والعشرين عند اسفل المبنى الشبيه بالعربة قدحطمته الايدي الناقمة . والجياد السبعة الصغيرة الرائعة عند اقدام تماثيل سوريا الجبارة مكررة بمقاييس ضخمة امام الهيكل، وكأنها تجره . وقد زعم كثيرون انهـــم شعروا ان العجلات توهم بالدوران وان البناء بكامله يهمّ بالصعود نحو السماء : قـــد يكون هذا وهما شعريا ؛ ولم اشعر انا بهذا الشعور ، ربما لانني اريد ان تبقى كوناراك الى الابد كأعظم شاهد على ان اروع شيء في الوجود هو اننا ولدنا رجالا ونساء واننا نتحد واحدنا بالآخر .

وعندما اتأمل نتاج الفنانين والصناع الذين سجلوا هنا رؤاهم عن اللذة التي يتضمنها كون الانسان رجلاً وامرأة ، استطيع القول ان هؤلاء المبدعين ما كانوا يستطيعون ذلك لو انهم لم يستوحوا خبراتهم وتجاربهم الشخصية . ربما كانوا جماعة من الفنانين تعلموا فن الحب اولا ، واذ كرسوا انفسهم للبحث عن الروح من خلال الجسد ، فقـــد حفروا سير حياتهم الجنسية الخاصة في صور من حجر . لقد تعاون فنانون من مستويات عديـــدة لابداع الاثر بكامله ، كان بعضهم متقدما على البعض الآخر اشواطا من ناحيتي الخيال والتنفيذ . قد يكون هذا تخمينا : لكن المؤكد ان النحاتين كانوا جماعة يعبدون الحياة ،ولم يكن بينهم من سمع ان حب الرجل للمرأة او عبادة المرأة للرجل خطيئة .

لو ان كل ام علّمت ابنتها ان طبيعة المرأة الحقيقية تتحقق بواسطة نوعية الاتحاد الجسدي بالرجل ، ولو علّم كل اب ابنه ان رجولته تتحقق في ارقى صورها بفضل تأثير الجماع فيه ، لصار العالم مكانا مُرضيا اكثر مما هو الآن بكثير . ان معجزة كوناراك هي في ان اعظم رمز رأيته قط للتعبير عن اسمى معاني الانسانية هو صورة رجل يقدّم ذكورتـــه لامرأة ، فتتقبله المرأة بوقار مولّه لا يوصف . اليس عجيبا ان يكون هـــذا هو المكان

الوحيد ربما في العالم الذي يصور فيه هذا الفعل ببساطة مطلقة وصراحة كلية ؟ ان هـذه النوعية المميزة ـ هذه الروح ـ في كوناراك لهي شيء فريد .

ما من مقال كتب عن كوناراك ، ولا حتى الفيلمان المأخوذان لها ، يعطي ادنى فكرة عن تنوع حجوم النحائت فيها . فالمعبد بناء يستعصي على الوصف ، وليس مردّ ذلك الى كثرة الاضرار التي لحقت به بفعل الزمن ، او على ايدي الذين شعروا انهم مدفوعون الى تشويه كثير من الصور، بل لأن الحياة نفسها غنية وخصبة ومتناقضة بحيث لاتستوعبها عبارة واحدة او فقرة واحدة او كتاب واحد .

الشكل الاساسي للبنـــاء المتبقي هرمي ، وهذا الشكل كان يرمز بالنسبة لكثير من الصوفيين الى الاتحاد بين الله والانسان والكون . ويبدو لي ان هذه الفكرة مجسدة في البناء، وان النحت في مجمله يصورها . ففي الحياة الدمار عن طريق الحرب ، من طرف (وقد جرى التعبير عنه) ، وفيها من طرف آخر الحب والولادة (وهذا واضح في كوناراك اكثر من الدمار بكثير) . لكن سلطة اله الشمس تطغى على الاشياء جميعها .

في كل عجلة من عجلات العربة ينطق جمال الطبيعة . اما افعـــال البشر ، الافعال الانسانية ، وهي في الغالب (وان لم يكن على الدوام) افعال العاشقين المتحدين معاً اتحاداً جسدياً ، فتضمها كل دائرة . وخلف العجلات على الجدران صور اكبر حجماً لأشخاص قد يكونون وقد لايكونون منهمكين في احد نشاطات الحب . ان صور اتحـــاد الرجل والمرأة تتكرر على جاغاموهان وبقايا مانداباً ، من الاسفل الى الاعلى . لكن اذ تتصاعد الصور نحو الاعلى باعتبارها القوة الموحدة في الحياة ، يتزايد حجم التماثيل ويصبح التعبير عن الانفعال اكثر نعومة وصقلا : وفي هذا ايحاء بان الروح تسمو نحو الالوهة كلما اصبح تواصل المتحابين اكثر انسانية وحنوّاً .

هناك ظاهرة عجيبة في الفن الجنسي في كوناراك : هذه الظاهرة هي انه رغم ما في هذا الفن من واقعية لامثيل لهـــا فاننا لا نجد مشهداً واحداً يصور رجلا يمس امرأة رغماً عنها . وما من مشهد يوحي من قريب او بعيد بالاغتصاب ؛ حتى المناظر التي يمكن ان تعتبر تهتكية تتم برضا متبادل . ونتيجة لذلك نجد تعبيراً عن غبطة بالغة ، لايعكرها العنف

بين الرجال والنساء . هذه الغبطة ، التي تتخذ طابعاً بشرياً خالصاً في الصور التي في اسفل الجدران والمستويات المنخفضة في المباني الرئيسية ، تتحول الى صفاء نشوة الاتحـــاد بين الجسد والروح ، كلما ارتفعت نحو الاعلى حيث صور العازفات السماويات الكبيرة . فليس في آثار الفن كلها وجوه لها مثل الروحانية التي تتجلى على وجوه العشاق في اعالي جدران جاغاموهـــان . لقد جعلت صور كوناراك كل ما عداها من فن جنسي في العالم يبدو خليعاً فاجراً متبذلاً .

ان كوناراك كتاب حياة من حجر ، يتحد فيه البشري والالهي في حـــالة من الفرح . وتمثل كوناراك تحرراً مطلقاً من الصرامة ، اذ لا خضوع فيها لأية قاعدة : فثمة اشكال اضخم من الحجم الطبيعي مرصوفة كالجواهر وسط الواح صغيرة لايزيد ارتفاعها عن ٣٠ او ٤٥سنتيمتراً .ومن جملة الروائع هناك المداخل المتقنة النحت والنقش وهي تذكّرنا بروائع النقوش القوطية في اوربا. بل انك تشاهد عند قاعدة مانداپا صورة زوجين مهيبين يبدوان اشبه بزوجين اوربيين من العصور الوسطى .

هناك قصص كثيرة تواترت او وضعت على مر القرون ، لتفسير نشأة معبد اله الشمس في كوناراك . لكن يبدو لي ان مثل هذا الحب وهذا التقدير للحياة لايحتاجان الى تفسير : فيما عدا التسليم ربما بان النحاتين كانوا هم انفسهم عاشقين واحبوا الحياة برمتهـــا . ولا يمكن ان نحكم على روائع كوناراك في ضوء المقاييس الاكاديمية ، وان كانت من حيث النحت تمثل اروع ما عرف من طواعية في الشكل . فانا من عشاق النحت ، لكني لم ار قط في أيّ مكان آخر ما يضاهي نحائت كوناراك في اجتذابها الحواس والقلب والعقل .

ولا يمكن ان يرغم المضمون والمحتوى ــ الحياة نفسها وكل مظهر من مظاهر الحب البشري والالهي ــ على ان يوافق اية فلسفة او اي مذهب ديني مهما كان نوعهما ، مع ان هذا البناء وهذا الاسلوب تطورا على مدى خمسة قرون في اوريسا وكانا تطويراً للمعـــابد القديمة . لكنني اعتقد ان لكوناراك شخصيتها النفسية والروحية الخاصة بها ، مما يجعلها اثراً فريداً في نوعه . ويبدو لي ان كوناراك توحي لكل شخص يزورها شيئاً خاصاً به ، حسب موقفه من الحياة وعلى ضوء تجاربه هو .

فالذين يرون في الاتحاد الجسدي بين الرجـــل والمرأة شيئاً « بهيمياً » فحسب ، لن يجدوا في التجربة المنقوشة على الجدران الا نشيد غواية في صور من حجر ، وربما رأوها

« آثمة » او « متبذلة » . والزاهد الحقيقي يرى العالم بأسره وهماً زائلاً عليه ان يتخطاه ويهرب منه بواسطة الروح ورياضتها ونظامها. اما اولئك الذين ليسوا متزمتين ولا زهاداً، وينشدون بوعي منهم او عن غير وعي اتحاد اجسادهم وارواحهم كي يعيشوا في هذا العالم منسجمين مع انفسهم ومع الآخرين ، فانهم يرون في معبد الشمس تعبيراً عن السعادة وعن الوقار اللذين يمنحنا اياهما كوننا بشراً وكوننا على درجات متفاوتة من امكان بلوغ القمم الروحية عن طريق فعل الحب .

لكوناراك مداليل متنوعة غامضة . ففي القصص الشعبي تعتبر عربة الشمس رمزاً لانتصار الانسان على خطاياه . لكن الخطيئة تجر الألم وتترك طابعها على الوجه والجسم معاً . غير اني لم ار في كوناراك الا وجهاً واحداً عليه آثار الشهوانية في عرف البعض . اما امارات القسوة الوحيدة فقد تمثلت في نحائت الجياد المارة وهي تطأ الاعداء بحوافرها ، وربما ايضاً في نحائت الفيلة الضخمة التي ترفع بخراطيمها الضحايا البشرية . وعلى الافاريز صور معارك مصغرة بالغة العنف .

ويخيل لي ، وان لم يكن لديّ اي برهان على هذا ، ان الملك ناراسيمها ديفا الذي اوحي اليه باقامة معبد سوريا لم يفعل ذلك بروح المنتصر الذي قهر الغزاة ، بل فعله تمجيداً للحياة كردّ فعل لأهوال الحرب . ففي قطر كالينجا هذا كان قد تنسك الامبراطور الظافر ازوكا قبل الف سنة وقد ارعبه انتصاره ، فاقتفى خطوات غوتاما بوذا ولجأ من ذلك الحين الى « الانتصار عن طريق التقوى » . وكانت البوذية قد احاق بها الجدب ايام ناراسيمها ديفا ، والهندوسية قد تحجرت . ومن المحتمل ان يكون ناراسيمهاديفا ، آخر حكام اوريسا العظماء ، قد تسامى على انتصاره في الحرب بعشق هائم لامرأة ، بل وربما كانت هذه المرأة هي الزوجة المصورة هنا بعذوبة بين سرب من النساء . ولعل مشاهد الموت في المعركة جعلته يرتد الى الحياة تحت الشمس الساطعة مفعماً بشعور العبادة .

ان خرافة شفاء ابن الاله كريشنا من الجذام ، او اصابة ناراسيمها ديفا نفسه به ، لاتبدوان معقولتين كباعث لبناء هذا المعبد المكرس لمتعة الحياة . والوجوه التي على الجدران ليست وجوه خطاة . وقد تجلت حساسية الفنانين في صورة لجمع صغير ، يظهر بينهم رجل بدين ضخم — لكنهم لم يصوروه في وضع غرامي مع المرأتين اللتين في المجموعة. ان الواقعية تتوقف عند الفظ والهزلي كوجه من وجوه فن الحب ، اذ ان للذين بنوا

كوناراك موقفاً فكرياً تخطى المجون .

واذا كانت التاج محل قصيدة من حجر ابدعت لتخلد ذكر حب الامبراطور شاه‌جهان لزوجته ، افلا يمكن ان تكون كوناراك اغنية حب اخرى ، اقدم تاريخاً واكثر واقعية ــ اغنيــة حب ملك خبير بشؤون الهوى ؟ انه لصحيح من وجهــة نفسية ان التجربة الشخصية الكبرى للحب ، وللحب الجسدي ، تستطيع ان توسع آفاق الوعي باتجاه الحب اللا شخصي . ومن مبدأ « احبب قريبك كنفسك » يمكن ان تنطلق عبادة الخالق .

ما من قوة في كوننا تضاهي قوة الشمس في اعطاء الحياة والحفاظ عليها وتوليدها : فبدون الشمس لا حياة . وقد شخصت هذه القوة في كوناراك بشكل ثلاثــة فرسان يشرئبون الى الخارج عن جدران مانداپا ، يمثلون الشمس المشرقة وشمس الظهيرة والشمس الغاربة ؛ويمتطي فارس الشمس المشرقة جواداً يبدو كأنه يرتفع من عتمة كوّة ، بينما يقف فارس الظهيرة وتحت قدميه سبعة جياد صغيرة منتصب اوسطها على قائمتيه الخلفيتين ، اما اله الشمس الغاربة سوريا فواقف ايضاً لكن جياده السبعة مصطفة بشكل متناسق .

ما من وجه ، باستثناء وجه ابي الهول ربما ، استطاع ان يجسد روح الخير الوقورة مثل وجوه سوريا الثلاثة . انه عاشق الكائنات العادل ، وبارىء قوة الحياة الازلية . والقوة الاصلية في معتقدات الهندوس مؤنثة ، وقد عبر الفنانون عن هذا برسمهم جميع نساء المعبد ينتظرن ليمنحن طاقتهن (او يمنحن طاقتهن فعلا) للرجــال ، او ينتظرن ليهبن قواهن عبادةً للشمس نفسها .

وتتجلى معجزة النحت في كوناراك مرتين في اليوم ــ عند الفجر وعند الغروب ، اذ في هذين الوقتين تتوقد التماثيل بالحياة نتيجة لامتداد الظلال عليها ، ويبــدأ الجدار المقابل للشمس الغاربة يتوهج بلون بين الوردي والذهبي ، اذ ان البناء بكامله من الحجر الرملي . وفي الاعلى على افريزي جاغاموهان الثاني والثالث ، مجموعة من الاشكال المجسمة ، لكن الفخمة الرشيقة البارزة ، التي تمثل راقصات وعازفات ــ ولعلها اشهر نحائت كوناراك . وعلى جدران المعبد خلفها اشكال اصغر ، لنسوة سماويات ايضاً . لكن عندما تميل الشمس للغروب تبدو هذه الاشكال كأنها تغور في الجــدران ، تاركة اشكال النساء الواقفات ، السماويات وبالوقت ذاته الشبيهات باخواتهن بنات الارض ، يظهرن كأنهن يتقدمن ، عندما ينظر المتفرج اليهن من الارض ادناه . وسبب هذا التأثير الغريب هو ان هــذه

الاشكال منحوتة من حجر رمادي اشد غمقاً وقتامة ..

وتتلاشى صورة الحياة الشاسعة الدقيقة في الجدران مع جنوح الشمس للمغيب ، تاركة تماثيل سوريا الرمادية ذات المهابة الهادئة واشكال النساء السماويات على الافريزين العلويين، ويبرز كل شكل على حدة بروعته الخاصة. ولم يكن هذا التأثير الأخاذ مقصوداً في الاصل: فمنذ قرون كان البرج المرتفع الذي تهـدم ، يرتفع فوق ماندابا ويظلل اشكال النساء السماويات اللاتي يبدين كأنما يرافقن تماثيل اله الشمس عند اختفاء منظر الحياة ، للبشر وللآلهة على السواء .

وليس هذا التحول بالوحيد الذي يحصل عند الغروب : اذ هناك وجه غريب لاسد ضخم يتوسط اعلى جاغاموهان ، ويمثل قوة الطبيعة . فتغيّر الشمس الغاربة تعابير هـذا الوجه الشرس ، حتى ليصير اشبه بوجه متأمل عليه مسحة روحانية ، ويصير حنونا بعد ان كان مرعبا . ربما كان هذا كله من نسج خيالي ، لكن رأيتني وقت الغسق المح قرابة في الشعور العميق بين وجه سوريا الجميل والاسد . وما دامت الثنائية جزءاً من معتقدات الهندوس ومشاعرهم ، فليس الانطباع الذي تولّد لديّ فجأة وهميا الى حد بعيد .

من العبث ان ادعي بانني حصلت على ما هو اكثر من انطباع عـام عن كوناراك ، وطربت لبعض المشاهد هنا وهناك . فكوناراك صرح يجب ان يعيش المرء في جواره زمنا طويلا . فالتأثير الكامل يمكن ان يتسرب من الوعي بسهولة ، بسبب مـا في الاجزاء والتفاصيل من سحر وانس . وليست عظمة كوناراك هي التي استحوذت عليّ ، بـل الانسانية النفاذة التي رأيتها في تفاصيلها . انها ، بالنسبة اليّ ، اكثر المباني امتلاء بالحب، او هي المبنى الذي شيد بحب فاق كل ما رأيته في حياتي .

وقد رأيت افريزين على قطعة ضخمة من بناء لم يعرف اصله يستقران تحت شجرة ، سأذكرهما ما دمت حية . يصور الافريز العلوي شكلا اسطوريا في هيئة انسان يبدو كأنه يسبح في المحيط ، وعلى ظهره شكل بشري اصغر منه ، ومنظر حركة الاطراف في الماء يأخذ بمجامع القلب . والافريز الآخر عبارة عن صف من النساء ، بعضهن يعزفن على آلات موسيقية ، والبعض الآخر يجلسن متربعات وقد استدارت رؤوسهن يمينا اويساراً.

لم ار قط صورة فوتوغرافية للقطعة هذه السليمة من فعل الزمن ، لكني كنت لسؤ الحظ قد نسيت آلة تصويري . وهذه القطعة ، بالنسبة لي ، خلاصة كل الجمال الحميم وكل طيبة القلب اللذين نراهما في جدران مبنى هو اكثر المباني التي ابدعتها عبقرية الانسان فرحـاً وسعادة .

ان ابداع الفن وتذوقه ، كالحب في اعلى درجات الانسجام ، تجربة حسية يتوحد فيها الجسد والروح ، او العقل والجسد ، حسب التعبير الذي تريد استعماله . والفن تصعيد للحياة واستحالتها الى ما هو ابعد منها وفن اوريسا ، ذو الجذور الضاربـة في القدم والذي ازدهرت روائعه الانسانية في بوبانشوار وبوري وبلغ قمته في كوناراك ، هو قبل كل شيء كشف لطاقات البشر الانسانية المتفجرة عن طريق محبة ما هو كائن في عـالم الواقع . انه فن يعظّم المرأة ويمجّد الرجل ، وهو تعبير معافىً عن المرئيّ والمتخيّل . واعظم درس يمكن ان تلقنه كوناراك لابناء العالم الحديث ، الذين يعانون الاضطراب والقسوة والعذاب ، هو ان التولّه والحنوّ ليسا متناقضين بل يمكن ان يقوما جنبا الى جنب ويوجدا معا في اللحظة الواحدة .